



في الأدب والتراث

التراث في المجتمع الجديد

تعليم الدكتور ناصر الدين الأسيدي

منهم فريق ، في حياتهم ، سلوكا ظنوه زيادة في الورع والتقوى ، وكان من تأثيرهم في ذلك بمؤثرات غريبة عن الاسلام نفسه دخيلة على التراث ، ان انفصلوا عن روح الاسلام والتراث ، وانقطعوا عن الحياة برمتها ، وصلوا ضللا بعيدا واضلوا كثيرا من الناس في العصور المتلاحقة .

اما ثاني هذين الاتجاهين فهو ما ذهب اليه جماعة تملكها الحقد واستبدت بها الضمينة واعمتها العصبية ، فاختلت تنهال على هذا التراث هدمًا وتلبًا . وصفها الجاحظ فقال : « ثم اعلم انك لم تر قط اشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا اعدى على دينه ، ولا اشد استهلاكًا لعرضه ، ولا اطول نصيبًا ، ولا اقل غنما من اهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على ابادهم ، وتوقد نار الشنان في قلوبهم ، وغلجان تلك المراحل الفاترة ، وتسمر تلك النيران المضطربة » .

فلم يروا في العرب الا انهم رعاة ابل وغنم ، قبائل رحل متفرقة ، لم تجمعهم جامعة ، ولم تؤلفهم حاضرة ، ولم ينتظمهم ملك . فأخلاقهم وعاداتهم وانماط حياتهم ، كلها مثالب ، ليس لهم فكر ولا حكمة ، ولا ادب ولا علم ، وانما ذلك كله لغيرهم ، للامم الاخرى وخاصة الفرس ويونان والهند ، فقالوا : « من احب ان يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند . ومن احتاج الى العقل والادب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والالفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فلينظر في سير الملوك . فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها . وهذه يونان ورسائلها وخطبها ، وعللها وحكمها ، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب . وهذه كتب الهند في حكمها واسرارها ، وسيرها وعللها . فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، عرف ايمن البيان والبلاغة وايمن تكاملت تلك الصناعة » .

كيف تكون للعرب بلاغة وخطابة ، وقد خاطبهم اولئك الشعوبيون فطنوا على خطباتهم : بأخذ المخرصة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم ، وعابوا عليهم لغتهم واصواتهم ، ووصموهم بأن قتالهم كان جلة بالعصي ، فقالوا : « فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر ، وحملتوها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر ، وحملتوها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب . ولطول اعتيادكم لمخاطبة الأبل ، جفا كلامكم ، وغلظت مخارج اصواتكم ، حتى كأنكم اذا كلمتم الجلساء انما تخاطبون الصمان . وانما كان جل قتالكم بالعصي ... »

السنا نسمع كل ذلك ، وان اختلفت الالفاظ ، الى يومنا هذا من بعض من اسودت قلوبهم حقداً من بعض المستشرقين وتلامذتهم المستغربين ، ومن بعض من اسودت عقولهم جهلا فاطلعوا على بعض ما عند الامم الاخرى وجعلوا ما لامتهم ، وغرهم ما يرون في حاضرهم ؟ وما شعر العربي ، الم يكن عوجا على رسم يسائله وعلى طلل يبيكه ؟ ومن كانت اولئك العرب من اسد وتميم وعكل ويمن ؟ الم يكونوا اعراب ؟ « ليس الاعراب عند الله من احد » ! كيف ترك الحضارة لتلك هذه البدوة الجافية ؟ الم يقل شاعرهم :

موضوع « التراث والمجتمع الجديد » من الموضوعات التي كثر الحديث عنها في كل عصر وامة ، فهو موضوع قديم حديث ، يتمثل في هذه المارك المتعاقبة في كل عصر بين « القديم » و « الجديد » ، وبذلك لا ينحصر في جيل دون جيل ولا يختص بزمن دون زمن . واذا قصرنا حديثنا على امتنا وحدها ، رأينا هذا الصراع يبرز امامنا واضحا منذ كان لنا تراث معروف :

فقد كان ابو عمرو بن العلاء لا يعد شعرا الا ما قاله الجاهليون والمخضرمون ، حتى لقد قال عنه الاصمعي : « جلست اليه عشر حجج ، فما سمعته يحتج ببيت اسلامي » . ويبدو ان ابا عمرو تساهل وفرط حين نظر في شعر جرير والفرزدق فأعجبه بعضه ، فقال : « لقد حسن هذا المولد حتى هممت ان امر صبيانا بروايته » . ولكنه حين خشي على نفسه من التوسع فيما يعده شعرا وقف عند حد ابي اسد يتجاوزة فقال : « ختم الشعر بذي الرمة » !

وجاء بعده بلميزه الاصمعي ، فسلك سبيله ، واختار مذهبه في تفضيل القديم والاقتصار عليه ، وان كان سار بعده شوطا ، فأدخل في عداد الشعراء بعض من جاء بعد ذي الرمة ، ثم وقف وتخرج من التوسع ، وقال : « ختم الشعر بابن هرمة » .

ولا يجوز ان تؤخذ هذه الاحكام على ظاهر نصها ، فما الى هذا قصد اولئك الاعلام ، ولكنهم كانوا يدفون عن العربية وتراثها غزوا يريد تدميرها ، على الوجه الذي سنبينه . وكل ما يعيننا من هذه الاحكام هو دلالتها العامة على ان هؤلاء الرواة العلماء كانوا لا يرون الادب الحق الا هذا التراث القديم ، وكانت كلما جاءت طائفة من تلامذتهم توسعت قليلا وادخلت في نطاق التراث بعض ما سبق عصرها مما لم يدخله اساتذتها ، واقتصرت على رواية هذا التراث القديم وحده وتعصبت له ، وانكرت نتاج عن عصرها من الشعراء ، وعدتهم من المحدثين او المولدين الذين لا يسمون الى طبقة السابقين ، ورات في نتائجهم ما لم يجر على نهج معبد ولا على طريق مرسوم . واستمر الامر على ذلك جيلا بعد جيل ، وسيستمر الى ما شاء الله .

✱✱

وقامت مع قيام الطائفة الاولى ، واستمرت معها توأكبها ، طائفة اخرى ، تنكر هذا التراث القديم ، او بعض جوانبه ، وتستنهين به بل تسخر منه وتسعى الى ان تهدمه هدمًا . وتمثل هذا الموقف في اتجاهين يختلفان في المصدر والغاية وقد يلتقيان في الورد والنتيجة .

اما اولهما : فهو ما ذهب اليه جماعة من المسلمين ممن تمكنت منهم الغفلة واستحكمت فيهم السذاجة ، فنفوا عن العرب في جاهليتهم كل مائة . ووصموهم بانهم كانوا امة جاهلة لا حظ لها من علم او معرفة ولا من عمران او رقي ، بعيدة عن كل مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية . وكل ذلك لينصروا الاسلام ، زعموا ، ويعلوا من شأنه . وبرز من هذه الطائفة بعض الوعاظ والزهاد الذين ادخلوا في وعظهم عناصر غريبة عن الاسلام وعن تراث العرب : من القصص والابحار وضروب الاوهام ، يستمينون بها على التأثير في العامة ، فاساؤوا ، من حيث لم يقدروا ، الى ديننا والى تاريخنا بهذه الاساطير والاهام . ثم سلك

فلست بتشارك ايوان كسرى
وضب في الفلاسع وذنب
و :

لتوضح او لحومل فالدخول
بها يعوي وليث وسط غيل

دع الاطلاع تسفيها الجنوب
وخل لراكب الوجناء أرضا
ولا ناخذ عن الاعراب لهوا
دع الالبان يشربها رجبال
بارض نبتها عشر وطلج
فاين البدو من ايوان كسرى
ولتستقيم الموازنة الساخرة بين
حالة العرب وحالة الفرس كان
لا بد ان يقول الشاعر في ذروة المجد العربي ايام بني امية :

فاتركي الفخر يا امام علينا
واسألني ان جهلت عنا وعنكم
اذ نربسي بناتنا وتدسو
فهل ابقت العرب اذن ترائنا يعتز به ويحافظ عليه :

تراث انو شروان كسرى ، ولم تكن
مواريت ما ابقت تميم ولا بكر
فلا بد اذن من التخلي عن كل هذا التراث العربي : في الشعر
والنثر والاخلاق والعمادات والقيم ، ولا بد من احياء تراث فارس في
كل ذلك :

انا ابن الاكارم من نسل جم
ومحيي الذي باد من عزم
وطالب اوتارهم جهرة
ومع ذلك فقد كانت هذه الشعوبية اعلم الناس بزيف دعواها
وبطلان افترائها . فقد كانت تجمع في آن بين تسفيه تراث
العرب والتثقف بهذا التراث ، فنجد رجلا مثل ابي نواس كان « عالما
فيها ، عارفا بالاحكام والفتيا ، بصيرا بالاختلاف ، صاحب حفظ ونظر
ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه
ومتشابهه ... وكان احفظ لاشعار القدماء والمخضمين ووائل
الاسلاميين والمحدثين » . وقد قال عن نفسه : « ما قلت الشعر حتى
رويت لسنتين امرأة من العرب ، منهم الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال »!
فلم تكن دعواهم اذن الا نفيها عن حقد ، وترويجا للباطيل بين
الناس ليخدعهم عن انفسهم ، ويشككهم في تراثهم ، ويزعزعوا ثقتهم
بأمتهم ويفصلوا حاضرهم عن ماضيهم ، فيقطعوا ثقافتهم عن جذورها
الاصيلة . ولا شك في ان هذه الدعوى وجدت من يصدقها حينئذ كما
تجد دعاوى تشبهها من يصدقها وينخدع بها في عصرنا هذا .

ومع خطورة هذه الدعوى فقد كانت عداوة مكشوفة وحقدا باديا
يسهل على المرء درؤهما وتفنيدهما . ولكن البلاء الشديد يكمن في ذلك
العمل الصامت الذي تصافرت فيه جهود كثيرين من هذه الطائفة
لتشويه تراثنا وتدميره من داخله به ادسته فيه من زيف وتحريف
ووضع ، فتسللت الى ايام العرب وانشابها واخبارها ، اي الى تاريخنا
السياسي والاجتماعي ، والى احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم
والى تفسير كتاب الله تعالى . حتى بتنا احوج الناس الى تمحيص هذا
التراث وتحريره ، لنستبين الاصيل من الدخيل ، ونميز الصحيح من
المزيف ، في تاريخنا السياسي والفكري والادبي والاجتماعي .

فلم تكن اذن دعوة هذه الطائفة دعوة تقديمية الى نمو وتطور وبناء
جديد - وان تظاهرت في بعض جوانبها بذلك خداعا وتضليلا . وانما
هي دعوة رجعية ضيقة قائمة على العصبية والهدم ، سلاحها الافتراء
والتزييف .

وقامت مع قيام هاتين الطائفتين ، واستمرت معهما تواجبهما ، طائفة
ثالثة هي اقرب الثلاث الى الفهم السليم والى طبيعة الحياة الصحيحة .
جمعت بين الحسينيين ، ورات ان الحياة لا يمكن ان تجمد وتقف حيث
كانت ، ولكنها في الوقت نفسه لا يمكن ان تنطلق متحلبة من كل نظام
يربطها بخصائصها ومقوماتها التي تمثل في تراثها . فانزلت هذه

الطائفة قديمها في منزله الصحيح وعكفت عليه تدرسه وتحبيه وتجده
وتستخرج كوامنه وتجلو رواثه . ثم مضت في حياتها على هدي من
هذا التراث تستقبل الجديد وتحيا فيه حياة سليمة وتشارك فيه
مشاركة اضيلة .

واذا اردنا ان نعرض نماذج من هذه الطائفة فربما كان اول من
نبدأ بهم هم كبار الصحابة . فقد نزل القرآن الكريم على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو بينهم ، فكانوا اقرب الناس الى فهم مراميها .
لقد ندد الوحي بالباي من التقاليد الموروثة التي كانت تشد الناس
الى الوراء شدا يحول بينهم وبين الفهم الصحيح للحياة ويعوق تطورهم .
لقد كان - كما يحلو لبعض المحدثين ان يقولوا - ثورة على العادات
البالية والمفاهيم الرثة . ولكنه لم يكن قط هدمًا للتراث والقيم القديمة
كلها . ولذلك كان الصحابة يجمعون في حياتهم بين التطور والنمو في
الاجتمع الجديد وقيمه وبين التمسك بالتراث الجاهلي ومخالفاتهم
عليه . فكثيرا ما كان هؤلاء الصحابة يروون ما نثر العرب ويتذكرون
اخبارهم ويتناشدون اشعارهم . وما اكثر الاخبار التي تروى عن عمر
ابن الخطاب وعنايته بالشعر الجاهلي ، واعجابه بأبيات منه بعينها ،
وتفضيله لشاعر على شاعر . وكذلك كان ابو بكر عالما بأبسام العرب
وانسابهم ، راوية للشعر الجاهلي ، يتمثل به في مواقفه ، ويستشدد
الشعراء ما قالوه في جاهليتهم واسلامهم . وكذلك كان جل الصحابة
من الرجال والنساء . بل لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يستشدد الصحابة الشعر ويسألهم عنه ، ويستعيد ما يستحسنه منه ،
ويبدي اعجابه ببعضه . وكان هؤلاء الصحابة يرون الشعر ديوان العرب
وسجل مآثرهم ، وكانوا يحضون على روايته ودراسته ، بل كانوا يرون
انه اساس ثقافتهم الاسلامية ، فكثيرا ما كانوا يستشهدون على الفاظ
في القرآن بأبيات من الشعر الجاهلي ويرون انه لا يفهم بعض ذلك
الا بهذا .

ومرت السنون ، واشتد الصراع بين دعاة التمسك بالقديم وايقاره
ودعاة هدمه وانكاره . وقام من ينظر الى الامر نظرة الحق المرأ من
الهُوى المجرد من التعصب . فهذا الجاحظ يعلن رأيه واضحا في قوله :
« وقد رأيت ناسا منهم يهرجون اشعار المولدين ، ويستسقطون
من رواها . ولم ار ذلك قط الا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما
يروى . ولو كان له بصير لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفي أي
زمان كان » .

وزاد ابن قتيبة من وضوح القضية فقال : « لم يقصر الله الشعر
والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل
جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، في كل دهر ، وجعل كل قديم
حديثا في عصره » .

وقال ابن رشيقي : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه
بالإضافة الى من كان قبله » .

وتمثل ذلك واضحا في بيت الشاعر :

ان هذا القديم كان جديدا
وهي سنة الحياة ولا سبيل الى الخروج عليها .

ولذلك نجد بعض شعرائنا الذين ادركوا هذه الحقيقة في مختلف
عصورنا الادبية قد عكفوا على هذا التراث الفكري والفني والاجتماعي
والسياسي فدرسوه دراسة تعمق وشمول وعاشوا فيه وتمثلوا قيمه
ومثله ، الى ان استقامت لهم طريقتهم فمضوا قدما يتفاعلون مع
حياتهم الجديدة ، ويفتحون نفوسهم وعقولهم لانواع المعارف والثقافات ،
فتلقوا منها ما شاؤوا هم ، لا ما اريد لهم ، فاساغوها ، وهضموها حتى
صارت جزءا من ثقافتهم ، من تراثهم ، من كيانهم ، ثم افرغوها في
قالبهم واخرجوها لنا في معالم جديدة في الشكل والمضمون : في
الالفاظ والاوزان وتنوع القوافي حيناً ، وفي المعاني والصور والخيالة
والموضوعات ، اي في التجربة الفنية ، حيناً اخر . فاصبح تجديدهم
جزءا من تراثنا زاد من خصبه ومن غناه .

ونخلص من كل ما تقدم الى معالم واضحة :

اولها : ان تاريخنا الفكري قد عرف هذا الصراع بين القديم والجديد معرفة واعية ، وانزله منزله الصحيح ، فقامت طائفة من العلماء والرواة والشعراء ورجال الفكر يتمسكون بالقديم ، ويدعون الى تقديمه وتفضيله ، ويدودون عنه كيد الكائدين ودسائس المفرضين الذين ارادوا ان يهدموا هذا التراث ليجتثوا اصول الامة ، ويفصلوا حاضرها عن ماضيها .

ولم يكن موقف هذه الفئة عن جمود او تعصب ، ولا عن جهل او ضيق افق ، وانما كان موقف المدافع امام هجوم مدبر ، ولا بد للمدافع من التشدد والصلابة وعدم التفریط .

وقامت فئة ثانية تدعو دعوة الفئة الاولى ولكنها كانت تعلم ان هذا القديم ليس اثارا تحفظ في متحف ، وانما هو حياة نامية ، فقبلوا الجديد حين كان تطورا طبيعيا من القديم ، وحين كان يصدر عن نفس الامة ويعبر عن ذاتها ، وليس مجرد تقليد لظاهر مجتلية ولا محاكاة لانماط ومذاهب غريبة عن روح الامة وتراثها .

وثانيها : ان هذا التراث العربي - في ضوء ما تقدم - كان دائس التجدد ، لا ينفك يتفاعل مع الحياة تفاعلا خصبا ، ويتجاوب معها تجاوبا اصيلا . وكان ابدا تراثا منفتحاً على غيره ، غير مغلقل على نفسه ، كان يأخذ ويعطي ، وكان دائما في اخذه وعطائه يصدر عن شعور عميق في نفس هذه الامة برسالتها الانسانية . ولذلك كان دائما في تجده ينبع من ذات النفس العربية في صدق واصالة .

ولا يمكن لتراث غير اصيل ، لا يعبر عن ذات الامة التي ينتمي اليها ، ان تكون له رسالة انسانية ، حين يلتقط فتات الامم الاخرى ، في تقليد سطحي ومحاكاة ظاهرية .

وثالثها : ان جميع الذين نهضوا بسبب التجديد كانوا ممن تزودوا بالتراث العربي تزودا فيه تمكن وعمق ، واحسوا بالروح العربية احساسا يسر لهم السبيل للتعبير عنها ، دون عجمة ولا اغراب ، فاصبح تجديدهم جزءا من هذا التراث في سيره العظيم . اما اولئك الذين كانوا ينزعون عن جهل ، ويدعون التجديد عن عجز ، والذين كانوا يريدون ان يحرفوا موكب التراث عن وجهته ليضل طريقه ، فقد باءت محاولاتهم بالخذلان ، وبقي التراث يؤدي رسالته .

ورابعها : ان تراث الامة هو روحها ومقوماتها وتاريخها ، والامة التي تتخلى عن تراثها تميّت روحها وتهدم مقوماتها وتعيش بلا تاريخ . والامم كلها ، مهما تكن فلسفتها الاجتماعية والاقتصادية ، تحرص اشد الحرص على تراثها وتبذل جهودا كبيرة لحيائه ونشره وبثه في نفوس ابناءها ، بل ان بعض الامم الحديثة فتعمل لنفسها تراثا تجمع اجزائه تجميعا وتنفع فيه نفعا لتتم له صورة تقيء اليها الامة وتنطلق منها . فليس صحيحا ان الاخذ باسباب الحضارة يستلزم هدم التراث ، وقد انخدعت بعض الامم بهذه الدعوى فاصبحت كالمنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى . وانما الصحيح ان تقدم الامة - حين تبدأ الحياة تنساب فيها - انما يكون من داخل نفسها وينطلق من تراثها .

وخامسها : ان تراثنا قد تعرض لضروب عنيفة من الغزو استطاع ان يقف للظاهر منها ويدفعه . ولكن بعض هذا الغزو كان مستترا ، تقنع باقنعة خادعة ، وهاجم هذا التراث من اعماقه ، من داخل حصونه : فكان ان وضع كثير من الاحاديث النبوية ، ودست في تفسير القرآن وفي تاريخنا الفكري والسياسي والاجتماعي اساطير واقاصيص غير عربية ولا اسلامية ، من تراث اليونان والفرس والهند واليهود ، وبشت فيه روايات ملونة بالاهواء المضلة . وتداخل ذلك كله في تراثنا ، وانطلى علينا بعضه . ولذلك اصبحنا نرى التناقض والتشويه في بعض اجزاء هذا التراث ، فيما تفرق فيه من روايات واخبار ، تدعو الى الحيرة والاضطراب ، وتسخج جوانب من حياتنا الفكرية والاجتماعية ، وتشوه بعض المعالم الكبرى في تاريخنا ، وتلقي على رجالنا ، في شتى الميادين ، ظلالا قاتمة من الشك في اعمالهم واقوالهم ، والانتقاص من قيمتهم الحقيقية .

وسادسها : ان جل جهودنا حتى الان قد اتجه الى طبع هذا التراث بطبعات تتفاوت في جودة تحقيقها ، وقد تيسر لنا في هذا الميدان قدر صالح ، وان كان لا يزال دون ما نريد . واتجهت جهود اخرى اقل من الاولى ، وان كانت كبيرة القيمة في ذاتها ، الى تحرير هذا التراث من الزيف الذي علق به ، والى تخليصه من الشوائب التي كدرت صفاه ، والى تجريدته من الدخيل الذي هجنه . ولكن هذه الجهود ظلت محصورة في نطاق ضيق يقتصر على الصفة والخاصة من العلماء والادباء . واتجهت اقل الجهود الى نشر هذا التراث بين الناشئة من تلامذة المدارس ، وبين طلبة الجامعات وجمهرة المتعلمين والثقفين ، نشرا يعتمد على التذوق الفني لما فيه من جمال واصالة وصدق ، وعلى التقدير الحقيقي لما فيه من قيم ومثل ونظم اجتماعية وانسانية ، وعلى التعرف الموضوعي - بعيد عن العاطفة السطحية والانفعال العابر - الى ما فيه من جهد عميق في جميع ميادين المعرفة النظرية والتجريبية ، والسعي نصينه الوافر ومشاركته الايجابية في بناء الحضارة الانسانية .

ان هذه الاحكام شائعة عامة ولكن اكثرنا يسمع بها بالتلقن السطحي العابر ، فلا يكون لها في العقل والنفس دلالة واضحة ولا احساس عميق ، بل ان اكثر متعلمينا ومثقفينا يشكون فيها بل انهم ليسخرون منها وينكرونها ، لانهم علموا بعض ما عند الاخرين وجعلوا ما عند قومهم ، ولانهم اطلعوا على بعض ما كتبه ذوو الافراض والاهواء في التهوين من تراثنا والتقليل من شأنه والازراء بسه ، فانخدعوا به وصدقوه .

وما اكثر الكلام الذي يقال عن مجتمعاتنا الرجعية وانظمتنا التي انقطع بها الزمن ، وعن تاريخنا الذي قام على السيف وجباية الاموال ، وعن سير اعلامنا التي لم تلتفت الا الى الخلفاء والحكام والولاة ، وعن ادبنا الذي كان ادب كدية واستجداء ونفاق في بلاط الملوك والامراء ، وعن لغتنا التي اصبحت عاجزة عن مواكبة حياتنا العصرية ومتطلباتها العلمية ، وعن فلسفتنا وعلومنا التي لم تكن الا نقلا مشوها لتنتاج اليونان والهنود وغيرهم .

ولا يجوز ان نستهن بهذا الذي يقال ويكتب ، ونعده مما يكتب عنا الاعداء الاجانب ، فقد بدأ الاجانب بذلك ، ولكننا تلقينا عنهم وتلمذنا لهم ، واصبحنا نطمع انفسنا بانفسنا ، بل صار كثير منا اشد عداوة لنا من الاجانب .

ولا بد لنا من ان نتدارك الامر قبل ان يزيد استفحالا وضراة . ولا يكون ذلك الا بالعمل الواعي الدؤوب على احياء هذا التراث ، واعادة تقويمه ، وتحريره من كل ما اندس فيه ، وتنشئة الامة عليه تنشئة مبصرة تقودها الى معرفة ذاتها والثقة بنفسها .

وسابعها : ان التجديد في الادب خاصة ، وفي التراث الفني والفكري عامة ، امر لا يجوز ان يكون مثار جدال ولا موضع انكار ، حين تنتفي مظنة العدا لهذا التراث ، وحين يقوم بالامر افراد من انفسنا احاطوا بتراثنا احاطة معرفة وفهم وتفوق ، وارتوت نفوسهم من معيئه

منشورات ((دار الاداب))

تطلب في القاهرة
من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب
(سليمان باشا سابقا)

دار الثقافة - بيروت

تقدم

آخر ما صدر عنها

★★

- الثلثون
- ٥٠٠ **الذيل والتكملة الكتاب العاشر من المكتبة
الاندلسية السفر الرابع**
- ٧٠٠ **الذيل والتكملة الكتاب الحادي عشر من المكتبة
الاندلسية السفر الخامس الجزء الاول**
- ٧٠٠ **الذيل والتكملة الكتاب الثاني عشر من المكتبة
الاندلسية السفر الخامس الجزء الثاني**
- ٤٠٠ **ابن الزقاق البلغسي عفيفة الديراني**
- ٢٠٠ **اشباح ورموز مارون عبود**
- ٢٠٠ **الزهاوي بين الثورة والسكوت**
عبد الرزاق الهلالي
- ٥٠٠ **الحرف الشعبية في لبنان ادفيك شيبوب**
- ٣٠٠ **لغة الشعر بين جيلين الدكتور ابراهيم السمراي**
- ٣٥٠ **ادباء معاصرون الدكتور محمود السمرة**
- ٥٠٠ **سليم النقاش اختبار الدكتور محمد نجم**
- ١٧٥ **الشعر والشعراء لابن قتيبة جزءان تجليد فاخر**

الثر ومن قيمه ومثله ، ثم تفتحت على افاق جديدة لم نعرفها في التراث القديم ولكنها انحدرت من روحه ومن جوهر كيانه ، ونبتت من ذات الامة ومشاعرها وحياتها وحاجاتها وآمالها .

ولا بد من روافد متجددة تصب في هذا التراث ، فتحرك ساكنة حيناً ، وتزيد مائه حيناً آخر ، وتعمق مجراه وتوسعه حيناً ثالثاً . فلا بد من الاطلاع على ثقافات الامم ومعارفها في القديم والحديث ، ولا بد من ترجمة بعض هذه الروائع والذخائر ، فهي ملك الانسانية كلها . واذا كان تراثنا في الماضي لم يتردد في الاسترفاد بضروب التراث المختلفة عند الامم جميعها وامتنع كثيراً منها وجعلها جزءاً منه ، فاننا سنقتصر في حق انفسنا وكرامتنا الفكرية ، وفي حق التراث الذي نصنعه للمستقبل حين نلتقي منافذ النور من حيث اتى ، ونقتصر على الاستضاءة بما عندنا ، فيفسد الهواء بعد حين ، وينضب الزيت ، وينطفئ المصباح . فلا بد من ان نفتح النوافذ كلها لنستقبل النور والهواء ، على ان نرى النور بأعيننا لا بأعين غيرنا ، وان ننتفسس الهواء برئاستنا لا بالرنات التي تصنع لنا ، وان نفتح النوافذ ونطلقها حين نريد نحن لا حين يراد لنا ، وعلى الصورة التي نختارها لا على الصورة التي تفرض علينا .

وليس الامر في التجديد امر الفاظ او اخيلة او معان او اوزان او قواف . فذلك كله شيء قد كان في جميع عصورنا الادبية على تفاوت بينها . وهو شيء قد انصرفت اليه جهود موفقة في الثلث الاول من هذا القرن ، ولم تثر شيئاً من الإنكار عند الكثيرين .

الامر في التجديد ليس هذا كله ولا شيئاً مثله ، ولكنه اعمق وابعد . ان اساس الامر هو مدى انسجام النهج النفسي والاحساس الفني عند المجددين مع النهج النفسي والاحساس الفني للامة وروح تراثها . واذا كان لا يجوز لاحد ان يدعو الى تجميد التراث جيلاً بعد جيل والى ان يحتذى الخلف خطوات السلف احتذاءً ونظابقاً وتشابهاً ، لان في ذلك حجراً على الحياة نفسها بل افناء لها ، فان السؤال الذي يجب ان يسأل دائماً هو : هل هذا التجديد هو تطور اصيل ، نابع من وجدان الفرد والامة ، متجاوب مع طبيعة حياتها وجوهر كيانها ، مواكب للمرحلة التي تمر فيها ، متطلع الى المستقبل الذي ترنو اليه ، متسق مع روح التراث ، معبر عن تجربة فنية ذاتية . هل هو حلقة متماسكة في سلسلة متصلة تتدرج تدرجاً طبيعياً يقود بعضها الى بعض وينتهي اولها الى اخرها ؟ او انه شيء لا تعرفه الامة ، ولا تحس بسبه ، ولا تتذوقه ، ولا تحتاج اليه . شيء غريب عنها ، دخيل عليها ، منقطع الصلة بها وباصولها وتراثها . شيء صنعه غيرها ، وكان عنده نتاجاً طبيعياً في بيئته لانه نابع من ظروفه متطور عن مجتمعه ، فهو بذلك جزء من حضارته ، جزء من منهجه النفسي واحساسه الفني ؟ ثم جاء منا من يقلده ويحتذيه ، دون ان يتمثله ويهضمه ، ودون ان يصيح جزءاً من احساسه واحساس امته . لئن كان احتذاء القديم تقليداً ، فماذا نسوي هذا الضرب من التقليد للاجنبي الغريب ؟ اليس انحرافاً بالامة عن طريقها ، وتمويهاً لها في انطلاقتها ، وتضليلاً لها عن نفسها ، وتدميراً لجنورها واصولها ، لتصبح كجذع الشجرة الذي يفرس على ظاهر الارض ، بغير جذور تقرب الاعماق ، وقد تركيب له الفصون والاوراق والثمار الجلوبة المصنوعة فتعجب بعض الرائيين وتخدعهم ، ولكنه لا يستطيع ان يورق ولا ان يثمر لانه ميت لا حياة فيه .

ولا بد لكل نتاج جديد ، يصح ان يعد في المستقبل تراثاً ، من ان تكون له جذوره الحضارية الخاصة به التي تسبغ عليه اصالته وتطبعه بشخصيته المميزة . واذا كانت الصلة بين الادب والحياة صلة وثيقة ، فان كل تجديد في الادب والفن عامة ، يجب ان يكون متسقاً مع طبيعة حياة الامة وروحها ، فالتطور في الادب ينبع من تطور المجتمع ، وحين يكون كذلك يكون في الوقت نفسه عاملاً من عوامل تطوير هذا المجتمع نظوياً سليماً دون ان يفصله عن جذوره ، ويقطعه عن اصوله ، ويعريه عن اصالته .

الدكتور ناصر الدين الاسد